جدلية الأرض والإنسان في روايات غسان كنفاني

د. فاطمة عيسى جاسم(*)

نجد ان الأرض الفلسطينية قد شكلت محوراً لأعمال غسان القصصية كلها. فقد حمل غسان بلاده بين ثنايا جلده، صورها معتمدا على الذاكرة وذكرياته، عالج غسان في كل رواياته القضية الفلسطينية التي تظهر وكأنها قضية ارتباط الإنسان بالأرض وعليه تتجسد الأرض في هذه الروايات في صور عديدة وتصبح اكثر من التربة التي يعيش عليها.

إنها القضية الإنسانية بكل مأساتها، يرتبط الإنسان بها بعلاقة مشاعرية فيها الكثير من الحنان والدفء والتواجد، فيها الكثير من الأنين والغربة والالتجاء.

الأرض.. كائن حي

هكذا بدت لنا الأرض عند غسان كنفاني شخصية إنسانية تنبض بالحياة، فتكتسب أفعال الإنسان وصفاته (تحب، تعشق، تحزن، تتنفس، تنبض، تفرح.....) فبدت اكثر من فضاء مكاني يتيح للحدث أن ينتقل في أرجائه، كما يمنح الشخصية مجالا حيويا للتفاعل الإنساني وبيئة مؤثرة في تكوينه.

(*) قسم اللغة العربية ـ كلية التربية

فقد بدت لنا كيانا يمتلك صفات إنسانية (جسدية وروحية) مما يهبها ويجعلها تمتلك هوية خاصة بها. فلو تأملنا الحجارة الفلسطينية هذه الحجارة التي تشارك الفلسطيني كفاحه اليومي، لوجدناها متجسدة في صورة إنسان صامد، فالمشاعر الإنسانية عندما تحاول ان تتلون، بل وتلتحم في بعض الأحيان بالمشاعر الطبيعية، فتحيل كل اتجاه شعوري جزئي إلى اتجاه شعوري كلي. " فتغدوا هذه المشاعر الإنسانية اكثر عمقا ثم تكسب صاحبها صبغة إنسانية نقية، عندما تحاول ان تُرسب الماديات وترتفع إلى مستوى جمالي عالٍ. فهذا الامتزاج بين الشعور الإنساني للأبطال وبين الشعور الطبيعي للمظاهر العامة.. حتى ليخيل إليك أن الشخصية الفنية قبس من روح الطبيعة الجليلة، وبان نفس الشخصية الفنية هي قطعة من نفس الطبيعة الخالدة"[1].

اصبغ غسان على الحجارة صفات غير مألوفة، إذ اقترنت كلمة الحجارة في أذهاننا بالقسوة والصلابة والجمود، فبث فيها روح الحياة وجعلها تمتلك شخصية متميزة، تنطق ملامحها بالأصالة والتفرد فهي كالإنسان الأصيل المقتلع من أرضه يحمل انتماءه أنى رحلَ. يقاوم التشتت والقهر بالحنين الدائم إليها.

فيحافظ على سماته الشخصية الأصيلة، ولا شك إن مثل هذا الحجر خير معين وافضل صديق للفلسطيني ما دام يشترك معه في السمات الشخصية ذاتها. وليس غريبا ان يصبح اليوم ذخيرة المناضل التي لا تنضب، ويصير الشريك، وعزَّ الشريك.

فالفلسطيني في أدبه يقف دائما في العراء تحت الطبيعة القاسية لم تضره

---

(١) النهايات المفتوحة ـ شاكر النابلسي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ط٢ بيروت ١٩٨٥ . دراسة نقدية في فن انطوان تشيكوف القصصي.

الأهداف الوهمية، وليس له غير الأرض تحميه وتحنوا عليه وتمدْ بالقوة"[٢] هكذا تتحول الأرض إلى كائن بشري تجري فيه دماء الحياة، فتقف شامخة بعطائها، لذلك لن يجد الفلسطيني معنى لحياته إلا في أحضانها. وعندئذ يصبح كيانا متكاملا ومتوازنا، قادرا على بذل حياته من اجلها. أما حين تضيع الأرض ويفتقد دفء أمومتها فستتحول إلى كائن ناقص، تنهشه الغربة فتزعزع توازنه النفسي وتخلخل تفكيره إلى درجة يرى فيها خلاصة في جمع المال والاستهلاك كما حدث في رواية" رجالٌ في الشمس". حين يكون الإنسان بعيدا عن أرضه، يصبح إنسانا بلا هوية يتيه في عالم غريب عنه يكيل له الصفعات باستمرار، فيقضي على كينونته، ويخنقه في خزان كبير كما حصل لأبطال هذه الرواية الذين داروا حول انفسهم ووجدوا خلاصهم بعيدا عنها. وبذلك ضاعوا بضياعها وافتقدوا توازنهم الفكري بافتقادهم العلاقة معها. فلكي يعيش الفلسطيني حياة طبيعية لابد ان يبحث عن صلة ما بأرضه التي هي أمه.

الأرض . . ألام . . العطاء والحب

تقف الأرض – ألام – إلى جانب الفلسطيني الذي عاد إليها بعد ان تركها فترة من الزمن نتيجة ظروف النكبة والتشرد، تقف شامخة صامدة معطاء، فيمنحها غسان صوتا خاصا بها يلتحم الفلسطيني بها. ويرى أنها الشيء الحقيقي الوحيد الذي بقي له وليس له غير الأرض التي تحميه وتحنوعليه وتمدْ بالقوة.

[أراح أبو قيس صدره فوق التراب الندي، فبدأت
تخفق من تحته: ضربات قلب متعب تطوف في

---

(٢) غسان والأرض - سهيل عمر الخاالدي - الأقلام . السنة الثانية عشر نيسان ١٩٧٧ع٧ ص١٠٤

ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر إلى خلاياه.. وفي كل مرة
يرمي بصدره فوق التراب يحس بذلك الوجيب
كأنما قلب الأرض ما زال منذ ان استلقى هناك
أول مرة يشق طريقا قاسيا إلى النور من أعماق الجحيم][٣]

فأبو قيس ينأ ى عن الأرض لكنه إذ يمنح صدره لتراب الأرض البعيدة فان قلبه يخفق بدبيب الأرض الأولى، المفقودة، وليست الأرض قريبة من القلب لكن متوحدة فيه تخفق مع خفقاته، وتستمد رائحتها من تلك الألفة الحارة التي يستنشقها الرجل في المرأة – ألام.

" هذا الاقتراب من الأرض المفقودة يتسامى بها عن المسافات ليحرقها في الذاكرة والحلم. فنسيج رحلة الإنسان الفلسطيني يبقى متمحورا حول الأرض "[٤].

فان حامد في رواية- ما تبقى لكم – أحسسها هو الآخر امرأة حنون – ألام – إذ استمد منها قوته وصلابته التي هي أقوى من الفولاذ كما يقول:-

[كل أنصال الفولاذ في العالم ليس بمقدورها ان تحصد
من فوقك عرقا واحدا، ولكنها تتكسر، واحدا وراء الأخر،
أمام حصادك المر النامي اكثر فاكثر، كلما خطا الرجل
في أعماقك خطوة وراء الأخرى حتى ليتحول هو ذاته
إلى عرق مجهول مشرس يستقي منك انتصابه وخطواته][٥]

---

(٣) رجال في الشمس- الآثار الكاملة. المجلد الأول. الروايات. ٣٧.

(٤) ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ـ فاروق وادي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. دائرة الإعلام الفلسطينية. ط١ ١٩٨١، ٥٢

(٥) رواية- ما تبقى لكم -الآثار الكاملة/ المجلد الأول الروايات ١٦٩.

هنا يبرز تفاؤل الكاتب عندما يصور ميلاد الغد من رحم اليوم، فهو استشرف للمستقبل منبعه معرفة الكاتب للقوى الفاعلة في الحاضر واتجاهها الصحيح. تفاؤل نابع من إيمان بقدرة الشعب الفلسطيني على تجاوز الهزيمة عبر الثورة وعبر تقديم كل ما تتطلبه من تضحيات جسام. انه تفاؤل يعرف ان الحاضر ليس لحظة متقطعة الجذور. منعزلة كجزيرة موحشة وسط بحر متلاطم بل هي وجود في حركة تاريخ لها جذور في الماضي وحركة تتوجه للغد "[٦]

تتحول الأرض- الصحراء- إلى كيان يتنفس فبدلا من وحشيتها في الرواية الأولى، نرى ان غسان هنا يؤنسها، فيضع فيها عقلاً ومشاعر، ويكسبها لحما ونبضا وعواطف دافئة.

[رآها الآن لأول مرة مخلوقا يتنفس على امتداد البصر،
غامضاً ومريعا وأليفا في وقت واحد...][٧]

[وقد أحس بها جسدا هائلاً يتنفس بصوت مسموع
يتنفس جسد الصحراء، فأحس بدنه يعلو ويهبط
فوق صدرها...][٨]

[نغرس أصابعه في لحم الأرض وذاق مرارتها تسيل في جسده
وبدا له أنها تنفست في وجهه فلفح لهاثها المستثاء

---

(٦) انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية – شكري عزيز ماضي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ط١ ١٩٧٨ – ١٧٩
وينظر الطريق إلى الخيمة الأخرى. رضوى عاشور. دار الآداب. بيروت. ط١ ١٩٧٧- ١٣٥
(٧) رواية – ما تبقى لكم – ١٦١
(٨) م. ت - ١٦١ – ١٦٢

في وجنتيه وشدّ إليها فمه وانفه فاشتد الوجيب الغامض][٩]

لم تتوقف عملية انسنة الصحراء عند إحساس الإنسان بإنسانيتها، لكنها تتعدى ذلك لكي تصبح كيانا إنسانيا يحس بذاته.. ويستشعر خطوات الزمن الجديد وهو يطرق بدنها، نجد هنا تحتضن حامد الذي يواجه مصيره. الأرض هنا تبارك الفعل وتشارك فيه وتتعاطف معه، إذ ان حامد هنا رغم تردده وحيرته وضياعه " لكنه ماض في اتجاه الفعل في سبيل الوصول إلى هدفه فقد عبر الصحراء، لكن الصحراء تكشف له عن عدوه الحقيقي الإسرائيلي الذي عبر قتاله سيعود حامد إلى أمه ـ الأرض ـ وتولد من جديد، فالولادة بشارة للجديد الذي يتمخض عنه الإنسان الفلسطيني"[١٠].

فالأرض هنا رمز للام ولعل ما يرده غسان فنياً ـ من خلال إبراز هذه اللقطة الروائية. " ان يبرز العلاقة بين المقاتل والأرض علاقة حميمة أشبه بتلك التي تقوم بين الطفل وأمه انها تمنحه العون دوما "[١١]

ان هرب حامد عبر الصحراء باتجاه ألام ـ الأرض ـ حيث الاتجاه الصحيح " ان الفعل هنا وان كان على مستوى فردي بل هو خطوة طليعية لطرح حصار الماضي وحسابات الخسائر للحلول في البحر الجماهيري

---

(٩) م.ت ـ ١٦٩.

(١٠) غسان كنفاني إنسانا وأديبا ومناضلاً. إحسان عباس وفضل النقيب. إلياس خوري. منشورات الاتحاد ـ ١٩٧٤ ـ ١١٠.

(١١) غسان كنفاني البنية الروائية لمسار الشعب الفلسطيني. د. أفنان القاسم. أطروحة دكتوراه ١٩٧٥ ـ ٦١. وينظر رعشة المأساة ـ يوسف سامي اليوسف. دار منارات. عمان الأردن.ط١ ١٩٨٥.

في خطوة قادمة "[١٢].

نأى عن ألام – الأرض – بعيدا عن هذا العالم المحاصر بالخسائر والموبوء بالذل والعار ليصنع مستقبلا افضل. فحين ارتمى حامد في حضن الصحراء ليتجنب ضوء الدورية ولينجو بنفسه منها. نبضت العروق .. وتوحدت النبضات.. ولسعته الرمال .. وانتفضت فيه إنسانيته المفقودة وقامت حالة من العشق بينه وبين هذه الرمال .. رمز الأرض والوطن والحب! فتحول من حالة العجز إلى حالة القدرة، وكانت المواجهة التي نفضت الخوف بعيدا عنه. وتظل الصحراء ألام المرافقة لحامد لم يعد بمقدره ان يكرهها " الالتحام هنا حاد، وتنفس الأرض نداء ثورة وحامد يستقبل النداء وكأنه يشمه ويلثمه وعندما يلقى على الأرض يشد نفسه إليها قدر ما في جسده من قوة ان يفعل "[١٣].

فالأرض هنا – ألام – التي تمثل أمامه مثال للعطاء والحب ولهذا جعل غسان الأرض الشخصية الرئيسية والمحور التي تدور حوله رواية " ما تبقى لكم " فهي الطريق التي عبرها حامد حتى يصل إلى منطقة الأمان " أمه " ويتداخل تيار وعيها مع تيار وعي حامد وأخته مريم. انه الفلسطيني يقدم لنا عبر تيار وعي الصحراء – الأرض – حين يقف عليها تقول:-

[خيل إلي أن قدميه قد غرستا في صدري كجذعي شجرة لا تقتلع][١٤]

---

(١٢) الرواية في الأدب الفلسطيني ١٩٥٠ - ١٩٧٥. د. احمد أبو مطر. منشورات وزارة الثقافة والإعلام. دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ _ ٢٧٧.

(١٣) ممارسات في النقد الأدبي . د. يمنى العيد. دار الفارابي. بيروت ١٩٧٥ _ ٢٠٤.

(١٤) رواية ما تبقى لكم ١٩٥.

تصف الأرض أصالة الفلسطيني من خلال تعلقه بها فهي العون الدائم له. ففي خلوات حامد على صدر الصحراء مواجهة لدقات الساعة – النعش – تقول الصحراء:-

[دقات محشودة بالحياة يقرعها بلا تردد فوق صدري حيث لا صدى ثمة إلا الرعب وهو يخطو فيبدو أمام الجدار الأسود المرتفع وراءه مباشرة حيوانا ضئيلا يعقد العزم على رحلة دفء لا نهاية لها][١٥].

خطوات حيوان ضئيل في رحاب الكون خائف ووحيد ولكنه عاقد العزم على رحلة الدفء التي لا تنتهي. إذ انه في هذه اللحظة لحظة الاختيار المر والصعب اختار الفلسطيني الحياة والوجود. هنا يضيف غسان لبنة جديدة إلى هذا الوعي، ويرسم تجربة فرار أخرى لشعبه نحو الصحراء متمثلة " بحامد " الهارب من ذله وعاره ولكنها فوق الأرض ونحو المستقبل. يتحرر البطل من صمته وانتظاره ويبدأ رحلته.

" فقد قرر ألا يعود، فيرمي بساعته فوق الرمال، غير آسف على شيء، فلا شيء يستحق الأسف، ويجعل الصحراء التي شهدت موته وصمته تشهد كبرياءه وهو يبني إرادته ويعزم على المواجهة"[١٦].

هذه تجربة جديدة ومتطورة في حياة الفلسطيني وهي كما يقول إحسان عباس:-

---

(١٥) م. ت. ١٧٢

(١٦) زوايا من استيعاب الواقع في الرواية الفلسطينية. د. بسام فرنجية، الموقف الأدبي. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق السنة ١٨ نيسان ١٩٨٩ _ ٥٩.

" تجرد النفس الفلسطينية من كل السلبيات الثقيلة التي كانت ترزخ تحتها، هي نظرة وداع غير آسفة نحو ماضٍ يتوارى ويغيب"(١٧).

الأرض-الثورة-الولادة-البشارة

تتوحد علاقة الإنسان بالأرض إلى حد الالتحام حيث لا نجد رواية من روايات غسان تخلو من ذكر الأرض سواء في فعلها فهي تخفق، تنبض، تتفجر، تثور، تتفرج، تعشق، تلتحم، وفي لونها، فساعد أم سعد الأسمر القوي يشبه لونه لون الأرض ثم في كونها كائنا حياً فهو يستخدم ألفاظا وتعابير تجسم هذه الأفعال. (قلب الأرض، رطوبة الأرض، رحم الأرض، عمق الأرض وجسدها).

إن غسان في روايته – أم سعد – هذه قد قفز بحركة التاريخ خطوات تحولية إلى الأمام. عندما " جعل أم سعد كيانا حقيقيا نابضا يرتقي إلى درجة المواجهة الواقعية بنمطها الشعبي العفوي"(١٨).

فمن أين تجيء أم سعد؟ إنها.

[تصعد، من قلب الأرض وكأنها تصعد سلما لا نهاية له](١٩).

أم سعد مدركة تلك العلاقة بين النبتة وأرضها مجسدة علاقة الإنسان

---

(١٧) المبني الرمزي في قصص غسان. احسان عباس. الآثار الكاملة. دار الطليعة. بيروت. ط١ ١٩٧٢ _ ٥٢.

(١٨) ثلاثة علامات في الرواية الفلسطينية. مصدر سابق ٥٢.

(١٩) رواية. أم سعد _ غسان كنفاني. الاثار الكاملة / المجلد الأول / ط٢ ١٩٧٢. مؤسسة غسان كنفاني الثقافية / دار الطليعة _ ٢٤٩.

الفلسطيني بأرضه، هكذا تنتصب – أم سعد – أمامنا، نبتة فلسطينية تضرب جذورها في عمق الأرض. ها هي – أم سعد– منكبة فوق التراب حيث غرست تلك.

[العود البنية اليابسة وهي تنظر إلى راس اخضر

كان يشق التراب بعنفوان له صـــــــوت][٢٠] .

كما إن الدالية التي تزرعها.

[تأخذ ماءها من رطوبة التراب ورطوبة الهواء ثم تعطي دون حساب][٢١].

لقد بدأت الأرض التي روتها الدماء الزكية تنبت البراعم، براعم الثورة هذه البراعم التي ستكبر وتحمل السلاح وتدافع عن ارض الوطن. وغدا نداء الأرض الذي استجاب له الإنسان عطاء. فالأرض هي التي تنبت الثوار والثوار هم الذين ينذرون أنفسهم في سبيل الأرض في ترابط جدلي الأرض انبت أم سعد وأم سعد انبت سعد الذي يقاتل في سبيل الأرض.

النقطة الأساسية التي تدور حولها الرواية (أم سعد) ونعني بها قدرة الثورة على خلق إنسان جديد يختلف في مفاهيمه ونظرته إلى الحياة عن الإنسان العادي وقد اجهد غسان في تصوير ما نستطيع أن نسميه بالولادة الجديدة، فالثورة تعتصر كل الرواسب، التي كانت في الإنسان لتخلقه خلقا جديدا في اللوحة التي اسماها غسان "خيمة عن خيمة تغرق " نجد مثالا واضحا لذلك.فالفلسطيني يعيش تحت الخيام عرضة لأنواء الطبيعة والفدائيون أيضا يعيشون تحت الخيام. في هذه اللوحة تمثل – أم سعد – تلك الروح التي سادت المخيم الفلسطيني عقب الثورة حيث

---

(٢٠) م. ت – ٣٣٦.

(٢١) م. ت – ٢٤٩.

تحولت نفسية أهله من لاجئين إلى فدائيين يقاتلون في سبيل استعادة ارض الوطن.

فبعد أن كانت " خيمة لا جيء ترمز إلى الذل والخضوع والاستسلام أصبحت نفس الخيمة على يد الفدائي ترمز إلى الأمل والعودة والثورة والتحرر واستعادة الكرامة والحياة الجديدة "[٢٢].

فجاءت " أم سعد " كأنها تريد أن [تبصق في وجوهنا][٢٣].

بدأت الثورة بالرفض، فقد رفض سعد أن يجرف وحل المخيم بعد اليوم وذهب سعد ليسدد أول رصاصة فلسطينية ولكنها لم تكن أول رصاصة يتيمة بل كانت بداية النهاية للخلاص من الوضع اللاإنساني لشعب فلسطين، وينقله إلى تجربة الممارسة النضالية المسلحة والواعية.

احتلت الأرض مساحة واسعة في ذاكرة الإنسان الفلسطيني الذي عرفها وشمّ رائحتها فتعاطفت معه وتجاوب معها بكل صدق وإخلاص متوحدا متفانيا في سبيلها.أما بالنسبة للجيل الذي ولد ونما بعيدا عنها تبقى شيئاً آخر اكثر من مجرد ذاكرة.

كانت الأرض بالنسبة لسعيد س في رواية "عائد إلى حيفا " مكانا يعشش في خلايا الذاكرة بكل أشيائه الصغيرة وتفاصيله ويتنكر لصاحبه الذي يطل عليه بعد هزيمة، فإنها لجيل ابنة خالد، الجيل الذي لم ير الأرض من قبل لكنه حمل السلاح ليقاتل من اجلها، تعني شيئاً اكثر من مجرد ذاكرة.

[كنت أتساءل فقط. أفتش عن فلسطين الحقيقية،

---

(٢٢) المغامرة الروائية ـ جورج سالم. منشورات اتحاد الكتاب العرب / دمشق ١٩٧٣ ـ ١١١.

(٢٣) رواية ـ أم سعد ـ ١٦٠.

فلسطين التي هي اكثر من ذاكرة، اكثر من ولد، اكثر...

وكنت أقول لنفسي: ما هي فلسطين بالنسبة لخالد؟

انه لا يعرف.. الصورة ولا السلم ولا الخليقة، ولا

خلدون، ومع ذلك بالنسبة له جديرة بان يحمل المرء

السلاح ويموت في سبيلها][٢٤].

وحين يحمل الثائر سلاحه ويموت في سبيل الأرض وعلى الأرض فإنها تحتويه وتكتسب لون دمه وهي تتشكل على شاكلة الشهيد.

"رغم كافة ألوان الاضطهاد الأجنبي يظل الفلسطيني دوما متعلقا بأرضه وترابه "[٢٥].

كل دموع الأرض لا تستطيع أن تحمل زورقا صغيرا يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود.

[لقد أمضيت عشرين سنة تبكي.. أهذا ما تقوله لي ألان؟

أهذا هو سلاحك التافه المغلول][٢٦].

يكتشف سعيد إزاء هذه المواجهة القاسية إن فلسطين كانت له حائطا يبكي عليه وجنة يتحسر على فقدها. إن سعيد هنا يتساءل عن معنى الوطن ويكتشف أن فلسطين كانت دائما بالنسبة له ماضيا يتحسر على فقده أما ابنة خالد الذي لم يعرفها فهي تمثل له المعنى والمستقبل، ولذلك فهو يريد أن يحمل السلاح ويدافع فهو صورة جيل جديد يحمل السلاح ليصنع خلاصة وخلاص الوطن.

---

(٢٤) رواية ـ عائد إلى حيفا ـ ٤١١ ـ ٤١٢.

(٢٥) دراسات في الأدب الفلسطيني د. احمد أبو مطر / دار الطليعة للطباعة والنشر. الكويت ١٩٧٩ ـ ١١٣.

(٢٦) روية ـ عائد إلى حيفا ـ ٤٠٦ ـ ٤٠٩.

في هذه الرواية (عائد إلى حيفا) يكتب غسان (الجواب المباشر على هزيمة حزيران) ويدين الهجرة، ويبدد الأوهام عن معنى الوطن، فالوطن ليس الذكريات بل هو المستقبل، والمصالحة مع العدو غير ممكنة، فلابد من النضال من اجل تحقيق المستقبل، فالقتال هو طريق وحيد للعودة.

الأرض. الحبيبة المعشوقة

نجد أن غسان يقدم لنا في روايته " العاشق " صورة جديدة عن واقع أمة من خلال تقديم مجموعة من الأحداث، انه يقدم لنا صورة الإنسان الكادح الذي يشكل مادة الثورة ومستقبلها، والذي شارك في الكفاح في طيلة الثلاثينات وما بعدها. فالعاشق – قاسم – يمثل الجماهير الكادحة التي شكلت مادة الثورة، قاسم كان يعمل بصمت عند الشيخ سليمان. لا يعرفه ولا ينتبه لوجوده أحد، حتى حصلت حادثة غريبة لقد داس قاسم على الرماد الذي تخلف من نار ليلة ماضية واشعلت النار في قدميه، ومع ذلك لم يهتز أو يتأثر، كان يسير بهدوء وثبات فوق النار.

[أن نار العشق التي تكويه من الداخل اشد حرارة من
النار التي داس عليها، ولذلك لم يحس بها انه عاشق][٢٧].

هكذا غاب اسمه مرة أخرى، وظهر باسم آخر – العاشق – هو وحده الذي يتحمل النار المشتعلة تحت قدميه دون أن يتأوه، يتحمل في سبيل عشقه ما لم يتحمله البشر.

هذه الإشارة إلى ارتباط قاسم – العاشق – بالنار، وما يعنيه من ارتباط بالثورة كان عميق الدلالة بالنسبة لشخصية قاسم فهو إنسان لا يمكن أن يهدا أو أن

---

(٢٧) رواية – عائد إلى حيفا. ٤١٢.

يركن إلى بيت أو يعيش مستقرا كما يعيش الكثيرون انه عاشق أولا ونار العشق تكويه، لذا فهو يشارك في النضال في فترة هامة من تاريخ الشعب الفلسطيني. إن الأسماء العديدة التي اتخذها هذا العاشق لها دلالاتها العامة والخاصة. إنها تدل على ديمومة الثورة وتجددها، رغم تغير الشخصيات، انك كي تلقي القبض على قاسم أو – عبد الكريم – عليك أولا:-

[أن تلقي القبض على الأرض][٢٨].

نجد تواطؤ الأرض مع العاشق الفلسطيني يدركه عدوه الذي يطارده- الكابتن بلاك، الضبط الإنكليزي. ويعبر عنه بكلمات هي اقرب إلى الشهادة إذ يقرر بعد إحدى محاولاته القبض على عبدالكريم – قاسم – العاشق.

كنت أقول لنفسي، وأنا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب إن الأرض ذاتها هي المتواطئة والشريكة.

[انك كي تقبض على عبدالكريم عليك أولا أن تلقي القبض على الأرض][٢٩]

إن هذا الالتحام والالتصاق بين الثائر – العاشق – والأرض دليل على الترابط الذي لا ينفصم بينه وبين أرضه. وفي هذا إشارة تؤكد أن الأعداء لا يستطيعوا تشريدنا والانتصار علينا لو تمسكنا بالأرض. فالأرض هنا تشكل ملاذاً للثائر ووسيلة معينة، كما إنها تشكل حماية له وقت الخطر.

تبقى الأرض المتوحدة بالعاشق تتعاطف معه وتحميه ويظل فوق الأرض

---

(٢٨) رواية – العاشق –٤٢٨.

(٢٩) رواية – العاشق – ٤٤٦.

التي يعشقها والمتوحد فيها حتى العظم والنخاع متنقلا فيها واليها. تحتويه بتواطئها الحنون معه وتحدب عليه. كل الأشياء لديه تبدو قابلة للانفصال عنه. اسمه وماضيه وشخصه إلا الأرض القادرة على منحه تجدد الفعل، يظل الانفصال عنها غير ممكن. فهو حين يسجن يعود ثانية ممتدا في الأرض.

[كالمد وعاد فجأة فأذابه يملأ الجرود مرة أخرى من الجرمق إلى ترشيحا إلى جدين إلى عكا](٣٠).

نجد التوحد والالتحام الكامل بين العاشق والأرض، الاندماج الذي يدفعه إلى إنكار اسمه وتغيره وشخصه وعمله من اجل الأرض، يهاجر من رقعة إلى أخرى لكنها الأرض الواحدة تبقى ممتدة وتمتد. مهما بعدت المساحة بين المكان والآخر. تبقى الأرض متعلقة بالعاشق تحنو عليه.

فالأرض التي انبت الثوار والمناضلين قادرة على أن تنبت ثوار آخرين والثورة لا تتوقف لاعتقال أو استشهاد مناضليها، إن سجن العدو مناضلا فالشعب يقدم ألف مناضل، وان استشهاد مناضل فالأرض تنبت ألف مناضل.

يؤرخ غسان بهذه الرواية إلى بدايات الثورة الفلسطينية كما انه ينبأ بحتمية استمرارها وتجددها، وهذه ميزة بالغة الأهمية. "إذ أن الفن الصادق يشد من اللحظة ما ترهص به مستقبل فينبئ وينبأ"(٣١).

---

(٣٠) رواية – العاشق – ٤٣٩

(٣١) رواية – العاشق – ٤٣٩.

الأرض.. المشاعر.. الفرح والحزن

الأرض هي الفرح والحزن، هي الصورة والظل، نجد أن غسان أول من أعطى الأرض بعدا سيكولوجيا، فهي التي تحرك مشاعر الشخوص وقد كانت دائما إلى جانبهم في صراعاتهم وكان التخلي عنها يعني الموت. فالأرض هنا تتقمص دور الإنسان الفلسطيني من خلال هذه الصور الجميلة.

[عندما جاء نيسان أخذت الأرض تتفرج بزهر البرقوق
الأحمر وكأنها بدن رجل شاسع مثقب بالرصاص، كان الحزن
وكان الفرح المختبئ فيه مثلما ما تكون الولادة يكون الألم][٣٢]

فالأرض عندما يكتسي بدنها بزهر برقوق الربيع تصبح مثل جسد رجل شاسع ثقبه الرصاص أنها تحتوي على الشهيد في أعماقها فحسب، ولكن شكلها الخارجي يتجلى على هيئته.

هكذا تتبدى الأرض في عيني الرجل العجوز والد الشهيد – قاسم – الذي ظل منشغلا بتلك الصورة الغريبة التي اقتحمته كأنها قذفت على رأسه بجمر.

[بدن الأرض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص، يتفرج بزهر
البرقوق، ويكاد المرء يسمع نذير الدم يتدفق من تحته، ولا
ريب أن قاسم بدأ كذلك بعد هنيهات من سقوطه][٣٣].

فالأرض هي ذروة العلاقات الحميمة للفلسطيني مع الأشياء إنها نقطة الدائرة التي انزلق عنها الفلسطيني وهي ذاتها التي يطمح للوصول إليها بارتقائه

---

(٣٢) مدخل إلى علم الجمال الأدبي- ٤٥.

(٣٣) رواية – برقوق نيسان – ٥٨٠.

للانحناءات الصاعدة عبر الممارسة النضالية فالصورة مهيبة مهابة بدن في اتساع الأرض والصورة مثيرة بعدد الثقوب التي يتسع لها مثل هذا البدن، وفي هذه الأرض – البدن – تم الالتحام واصطبغ الوجه منها بلون الدماء المزهرة.

من خلال تتابع الصور الكثيرة تظهر لنا علاقة الالتصاق بالأرض، علاقة مشاعرية نامية متطورة، وهذه الصورة تبدأ في ضوء الأبعاد الأخرى للرواية، مرتبطة بوعي متطور نام، فهي شعور ينضجه الوعي، وارتباط تلتزم به النفس. هكذا تتجسد علاقة الأرض بالإنسان الفلسطيني علاقة حميمة تثبت مدى تعلق الإنسان بالأرض وتعلق الأرض بالإنسان فهي علاقة جدلية قوية لا يمكن فصلها وهذه العلاقة" بين الأرض والإنسان هي التي تغطي مساحة واسعة من رقعة الروايات لدى غسان، بل تشكل لديه مدخلا لقضايا عديدة "[٣٤]

فغسان في فنه أمين على تاريخ الأمة، رواياته منسوجة من خيط الواقع الفلسطيني في زمان بعينه.

---

(٣٤) رواية ـ برقوق نيسان ـ ٥٨٥.